مجلة آفاق لعلم الاجتماع
ISSN: 1112-8259 EISSN: 2600-6855
المجلد 12 العدد 1 / جوان 2022 ص ص 191- 201

تأثير الوعظ الديني على شخصية الفرد من منظور علي الوردي - تحليل سوسيولوجي من خلال كتابه وعاظ السلاطين-

The impact of religious preaching on the personality of the individual from the perspective of Ali Al-Wardi -A Sociological analysis through his book The Preachers of the Sultans -

د.ترايكية يامنة*
الأكاديمية العسكرية لشرشال، الجزار

تاريخ الإرسال: 2022/02/13 تاريخ التقييم: 2022/02/13
تاريخ القبول: 2022/04/06

الملخص:

أردنا من خلال هذه الدراسة تقديم تحليل سوسيولوجي لظاهرة الوعظ الديني وتأثيرها على شخصية الفرد من وجهة نظر عالم الاجتماع العراقي علي الوردي، حيث يرى أن الوعظ الديني وحده غير كافي لإصلاح النفس البشرية والمجتمع، فالوعظ المثالي يخلق في الإنسان صراعا نفسيا.

فإذا أردنا إصلاح الفرد لا بد من مراعاة طبيعته البشرية وظروفه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

الكلمات المفتاحية: تأثير، وعظ ديني، شخصية، علي الوردي، تحليل سوسيولوجي.

Abstract:

This study is a sociological analysis of the phenomenon of religious preaching and its impact on the personality of the individual from the point of view of the Iraqi sociologist Ali Al-Wardi, who sees that religious preaching alone is not sufficient to reform the human soul and society, as ideal preaching creates a psychological conflict in the human being.

If we want to reform the individual, we must take into account his human nature and his social, economic and political conditions.

Keywords: influence, religious preaching, personality, Ali al-Wardi, sociological analysis.

* د.ترايكية يامنة، ali.mona80@yahoo.com

1- مقدمة

يعتبر الوعظ الديني ظاهرة اجتماعية تتميز بها المجتمعات المتدينة بشكل عام والإسلامية بشكل خاص، حيث يعيش الناس في مجتمع يشتد فيه وازع الإرشاد الديني بهدف إصلاح المجتمع وتطويره والقضاء على المشكلات الأخلاقية والاجتماعية فيه، فقد أصبح عبارة عن مهنة يمتهنها كل من ليس له مهنة، كما يمكن اعتباره ثقافة منتشرة بين الناس وذلك لاستسهالهم الخوض في ميادين لا علاقة لهم بها البتة، فمن السهل الحكم على سلوكيات الناس بشكل عام وتصنيفهم إلى أشرار أو أخيار، فاسدين أو مصلحين، دون الرجوع إلى ظروفهم الاجتماعية أو الأسباب التي أدت إلى صلاحهم أو فسادهم.

كما يعتبر عالم الاجتماع العراقي علي الوردي أحد أهم الباحثين والمفكرين الاجتماعيين الذين بحثوا في هذه الظاهرة وحاولوا تفسيرها بعيدا عن كل التفسيرات التقليدية التي ترى في الوعظ الديني وسيلة يمكن من خلالها توجيه الناس وتهذيب سلوكهم ، حيث يذهب الوردي إلى التعمق في دراسة ظروف الناس الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تلعب دورا كبيرا في تحديد سلوك الفرد والتأثير فيه، فالوعظ وحده غير كافي لإصلاح الناس بل يجب إصلاح ظروفهم الاجتماعية، فالوعظ وحده قد يساهم في خلق صراع نفسي في شخصية الفرد، وهو ما سنحاول الكشف عليه من خلال هذه الدراسة، حيث سنحاول تقديم تحليل سوسيولوجي لظاهرة الوعظ الديني من وجهة نظر علي الوردي وتأثيره على شخصية الفرد وذلك من خلال الإجابة عن التساؤلات التالية:

- ما هو الوعظ الديني وما سبب انتشاره بشكل كبير في المجتمعات الإسلامية؟
- كيف يساهم الوعظ والوعاظ الدينيون في خلق صراع نفسي في شخصية الفرد؟
- ما العلاقة الموجودة بين المغالاة في الوعظ الديني وحدوث ازدواجية في الشخصية لدى الفرد؟.
- ما الدور المفترض الذي يؤديه الوعظ الديني في إصلاح المجتمع ومدى نجاعته؟
- كيف يمكن الاقتداء بالسلف الصالح بعيدا عن فكرة المثالية من وجهة نظر الوردي؟.

تمثلت أهداف الدراسة في ما يلي:

-التعرف على مفهوم الوعظ الديني بشكل عام ومفهومه بالنسبة لعالم الاجتماع العراقي علي الوردي بشكل خاص؛

-الكشف عن الكيفية التي يمكن من خلالها أن يحدث الوعظ الديني المثالي صراعا في نفسية الفرد من وجهة نظر الوردي؛

- التعرف على العلاقة الموجودة بين المغالاة في الوعظ الديني وحدوث ازدواجية في الشخصية لدى الفرد؛

-التعرف على الدور المفترض الذي يؤديه الوعظ الديني في إصلاح المجتمع ومدى نجاعته؛

- الكشف عن الكيفية التي يمكن من خلالها الاقتداء بالسلف الصالح بعيدا عن فكرة المثالية من وجهة نظر الوردي.

2- أهمية الدراسة

تكمن أهمية الموضوع الذي نحن بصدد معالجته في الدور الذي يلعبه الوعظ الديني في حياة المجتمعات العربية والإسلامية، حيث يحتل مكانة كبيرة ومهمة في مختلف الطروحات

المقترحة في علاج مختلف المشاكل الاجتماعية، حيث أصبح الوعظ الديني مهنة وظاهرة اجتماعية تميز المجتمعات المسلمة عن باقي المجتمعات.

ويعتبر علي الوردي من أبرز علماء الاجتماع الذين حاولوا إعطاء تفسير لهذه الظاهرة ودراستها من زاوية بعيدة عن النظرة التقليدية للدور الذي يلعبه الوعظ الديني في التأثير على شخصية الفرد، حيث يرى الوردي أن الدور الذي يلعبه هذا الأخير ذو تأثير سلبي أكثر منه إيجابي وهو ما سنحاول التعرف عليه من خلال هذه الدراسة.

3- نبذة عن حياة علي الوردي

قبل التطرق إلى التحليل السوسيولوجي الذي قدمه علي الوردي لظاهرة الوعظ الديني وتأثيرها على شخصية الفرد يجب في البداية التعريف بهذا المفكر الذي يعد من أهم علماء الاجتماع في المنطقة وأكثرهم إثارة للجدل، حيث ولد علي حسين الوردي في مدينة الكاظمية في ضواحي بغداد عام 1913، وقد درس في مدارس مدينة الكاظمية ولتفوقه في الدراسة الثانوية أرسلته الحكومة العراقية للدراسة في الجامعة الأمريكية في بيروت حيث تخرج منها ثم عاد إلى العراق وعمل في التدريس لمدة ثلاث سنوات ثم أرسل إلى جامعة تكساس في الولايات المتحدة الأمريكية لينال منها شهادة الماجستير بعنوان دراسة في سوسيولوجيا الإسلام ثم حصل على شهادة الدكتوراه بعنوان نظرية المعرفة عند ابن خلدون، ويعد علي الوردي الرائد الأول في تأسيس علم الاجتماع في الوطن العربي كعلم منفصل عن باقي العلوم الإنسانية وقد استمر في التدريس إلى غاية سنة 1969، أحيل بعدها للتقاعد بناءا على طلبه ليتفرغ للكتابة والبحث(الوردي، 2013، ص ص 10-11).

ومن أبرز كتبه نذكر ما يلي:

مهزلة العقل البشري، وعاظ السلاطين،خوارق اللاشعور(أو أسرار الشخصية الناجحة)، هكذا قتلوا قرة العين، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث (8 أجزاء)، الأحلام بين العلم والعقيدة، منطق ابن خلدون، قصة الأشراف وابن سعود، أسطورة الأدب الرفيع، شخصية الفرد العراقي، بحث في نفسية الشعب العراقي على ضوء علم الاجتماع الحديث، أكثر من 150 بحثا مودعة في مكتبة قسم علم الاجتماع في كلية الآداب جامعة بغداد(مدونة فكر بلا قيود، 2016/07/19 ، https://fakkerfree.wordpress.com).

4- منهج علي الوردي

طرحت تساؤلات كثيرة عن المنهج الذي استخدمه الوردي في دراساته وأبحاثه الاجتماعية، حيث يرى البعض أن الوردي ليس سوى مجرد مؤرخ وليس بعالم اجتماع وأن اغلب ما كتبه يقع في دائرة التاريخ وليس المجتمع.

إن القراءة الجادة لكتب علي الوردي تبين لنا بوضوح بأنه ليس مؤرخا وأنه يعتمد فقط على ما يكتبه المؤرخين(الوردي، 1969، ص 40)، حيث أنه لا يهتم بالتاريخ من أجل التاريخ وإنما لدراسته وتفكيك أحداثه وفهم تأثيره على تشكيل البنى الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ومعرفة سمات وخصائص شخصية الفرد العراقي التي نمت وتبلورت في إطارها، وهو الأمر الذي جعله يقرأ تاريخ الدولة العثمانية الذي زخر بأحداث وصراعات وتناقضات غير قليلة كان لها تأثير عميق وواضح على طبيعة المجتمع العراقي وإعادة إنتاج كثير من القيم البدوية السلبية التي نشأ الفرد العراقي في إطارها وتكونت ذهنيته بموجبها، وقد ذكر الوردي بأنه ليس مؤرخا وإنما يعتمد فيما يكتبه على المؤرخين.

ومن الناحية السوسيولوجية فإن للظواهر الاجتماعية امتداد تاريخي مثلما لها امتداد اجتماعي انثروبولوجي وهو ما يظهر في دراسات الوردي وطريقة بحثه وتحليله للظواهر الاجتماعية وتأويله لتأثيرها على المجتمع العراقي وتشكيل شخصية الفرد فيه، حيث يقول الوردي: "الواقع أن الباحث الاجتماعي الذي يتجول في صفحات التاريخ قد يستمد منها دروسا لا تقل أهمية عن تلك التي يستمدها من التجول في المجتمع، بعبارة أخرى، أن تجول الباحث في الزمان لا يقل نفعا عن تجوله في المكان ، فكلاهما يمده بالمعلومات الضرورية لفهم المجتمع البشري وطبيعة الإنسان"(الحيدري، 2006، ص-ص 65-67).

5- مفهوم الوعظ الديني عند علي الوردي

إن الوعظ الديني كآلية لنقل التصورات والمفاهيم والسلوكات المثالية لممارسة الدين لا يقتصر على الإسلام وكظاهرة تاريخية سنجد أن جميع المجتمعات البشرية طيلة عصورها عرفت نشوء طبقة حارسة لتعاليم الدين ووصية عليه احتكرت فهمه وتأويل تعاليمه مستهدفة ضبط المجال العام والرقابة عليه، ويجد الوعظ الديني في حالة الإسلام طبيعته من جوهر الدين حيث يلعب دورا مهما في ضبط كافة تفاصيل الحياة للفرد المسلم من منطلق سلطته الروحية، ولذلك عملت السلطة منذ فجر التاريخ الإسلامي على توظيف مخرجاته وتأميمه لفرض قراءة معينة ضيقة للإسلام، تختزله في منظومة نواهي وأوامر بغية نشر فكر جبري يجتث الحمولة الثورية الكامنة في الدين الإسلامي ويبرر للمظالم الاجتماعية وعسف السلطة ومروجا لفقه سلطوي يقدس طاعة ولي الأمر ويعتبرها من الكبائر العظمى(طاهر، 2018/12/3 ، www.aljazeera.net/blogs).

ولقد ظل هذا المجال قناة للتواصل وأداة لإخضاع الرعية ولذلك عملت السلطة على احتكاره وتأميمه، إذ أفضى هذا لتبلور مؤسسة دينية رسمية يسميها عالم الاجتماع العراقي علي الوردي بوعاظ السلاطين في كتابه الشهير الذي يحمل نفس الاسم وهي فئة تكسبت ماديا من الوعظ والإرشاد وكان لها تأثير حاسم في ذلك الانحراف الخطير في مقاصده حينما تحول من أداة للضغط على السلطة وتصويبها إلى أداة لتثبيط الجماهير وتغييب العقول، فيقول في كتابه وعاظ السلاطين: "بأن السلطة السياسية سعت على الدوام لتوظيف الوعاظ الرسميين لإلهاء الرعية عن مشاكلهم الحقيقية، خدمة للسلطان ولقلب المفاهيم حيث تصور الخطايا الفردية في كونها السبب الرئيسي في شقاء المجتمع وتعاسته"، وبرأيه هذا الفقه أراح الطغاة وأزاح عن كواهلهم مسؤولية ما اقترفوها من مظالم(طاهر، 2018/12/3، www.aljazeera.net/blogs).

6- منطق علي الوردي

إن وعاظ السلاطين في نظر الوردي ما زالوا يفكرون ويكتبون ويخطبون على نمط ما كان عليه الفلاسفة القدماء، فإذا رأوا ظاهرة اجتماعية أو نفسية غير إيجابية أخذوا يمطرون الناس بالخطب والمواعظ الرنانة ويعتقدون بأنهم يستطيعون إصلاحهم بذلك، في حين أن علماء الاجتماع يحاولون التعرف على الظروف الاجتماعية والعوامل النفسية والدوافع التي تؤثر في تفكير الناس وفي سلوكهم ومواقفهم من الآخرين، وبعد ذلك يحاولون إصلاحهم(الحيدري، 30 /2017/11، www.ahewar.org).

من هذا المنطلق وجه علي الوردي نقدا لاذعا إلى وعاظ السلاطين الذين يستخدمون المنطق الشكلي القديم في تبرير آرائهم واعتبره منطق السلاطين والمترفين، وهو بهذا انتقد التحالف الثلاثي بين الحكام الطغاة والمترفين ووعاظ السلاطين، لأنهم من نوع واحد، هؤلاء يظلمون الناس بأعمالهم وأولئك يظلمون الناس بأقوالهم(الحيدري، 30 /2017/11، www.ahewar.org).

يرجع بعض رجال الدين سبب عدم الاهتمام بالدين إلى ما نعاني منه من تفسخ خلقي واجتماعي، واعتبروا الإصلاح الاجتماعي أمراً سهلاً وميسوراً، فبمجرد أن يصلح المرء أخلاقه تغسل من القلوب أدران الحسد والأنانية ويتحول الناس بين ليلة وضحاها إلى سعداء، ويعود خطر مثل هذا الرأي إلى أن النفس البشرية لا يمكن غسلها بالماء والصابون ليزول عنها كل ما علق بها، وما علموا أنه مهما حاول الناس ورفعوا أصواتهم لتهذيب أخلاق الناس، فإنهم لن يؤثروا بمنطقهم هذا، لأن الطبيعة البشرية لا يمكن إصلاحها بالوعظ والإرشاد المجرد لوحده، قبل دراسة ما جبل عليه المرء من صفات وما أثر فيه من ظروف فقد اعتاد الناس أن يسمعوا المواعظ من غير أن يعيروا لها أذنا صاغية(الحيدري، 30 /2017/11، www.ahewar.org).

7- مفهوم الشخصية في فكر علي الوردي

يرى الوردي أن الشخصية هي حصيلة تفاعل بين مجموعتين من العوامل هما: الوراثة والمحيط، فالفرد يحمل صفات معينة يرثها من أبويه كالشكل والأجهزة العصبية والهرمونات وبعض الكفاءات والمهارات كما تؤثر البيئة التي ينشأ فيها الفرد كالبيت والأقران والمهنة ومن هذه العوامل مجتمعة تتكون شخصية الفرد وتنمو بالتدرج.

ويشير الوردي إلى أن هذه العوامل يختلف تأثيرها من شخص إلى آخر ولذلك ليس للناس يد في صنع شخصياتهم إلا ضمن حدود معينة وأن أكثر الناس الفاشلين أو الناجحين في الحياة ليسوا مسؤولين عن فشلهم أو نجاحهم فالظروف التي يمر بها الفرد ومختلف القدرات والملكات التي ورثها عن أهله تلعب دور في تحديد شخصيته في المستقبل(المطبعي، 1987، ص 165).

8- الطبيعة البشرية

كان هدف الوردي من دراسة الطبيعة البشرية هو الإجابة عن هذا السؤال: هل الإنسان مسير أو مخير في حياته؟.

يرى الوردي أن الطبيعة البشرية عصية عن البحث العلمي لأنها تخضع في جوانب عديدة لقوانين تشبه قوانين الطبيعة والتي من الممكن تسميتها نواميس بشرية، مع ذلك فإنها تختلف عن النواميس الطبيعية لأن الأخيرة تسير بوتيرة لا شذوذ فيها، أما نواميس البشر فإنها تختلف بدرجات متفاوتة بين هذا الإنسان وذاك، حيث يضرب الوردي المثل بإنشتاين فيقول: "لو كان هذا العالم الكبير ابن بيئة عربية مثلا وهو كما كان معروف طفل يعاني من التوحد وصعوبة في النطق، لما أصبح العالم الكبير الذي هو اليوم وبالتالي البيئة الاجتماعية للإنسان تلعب دور في التأثير على أفكاره ومصيره وأهدافه ودرجة تحقيقها"(المطبعي، 1987، ص 166).

وفي الفصل الرابع المعنون بـ "عيب المدينة الفاضلة" من كتابه مهزلة العقل البشري ؛ ينقد الوردي فكرة المدينة الفاضلة لدى أفلاطون والفارابي وغيرهم من المفكرين ذوي الأفكار والمثل العليا غير القابلة للتحقيق على أرض الواقع.

فطبيعة النفس البشرية تميل إلى الصراع والتنازع وعلى المفكرين فهم هذه الطبيعة والإتيان بأفكار تتماشى معها لا أن يحاولوا تغيير طبيعة الإنسان لتتماشى مع أفكارهم ومن هنا نشأت الديمقراطية الحديثة لتضع قواعد لهذا التنازع بدلا من إضاعة الوقت في محاولة القضاء عليه فوفرت بذلك كثير من الجهد والدماء(عوض، 2020/4/5، www.rawafidpost.com).

9- دور الوعظ الديني في خلق صراع نفسي في شخصية الفرد

يكون الوعظ الديني ذا ضرر بليغ في تكوين شخصية الفرد إذا كان ينشد أهدافا معاكسة لقيم العرف الاجتماعي، فإذا ذهب الفرد إلى المسجد أو المدرسة وأخذ يسمع وعظا أفلاطونيا يحضه على ترك الدنيا مثلا أدى ذلك إلى تكوين أزمة نفسية فيه(الوردي، 1995، ص15). فهو - يقول الوردي- يحب الدنيا من أعماق قلبه يود الاغتراف من مناهلها بكلتا يديه وهذا دأب كل إنسان في الغالب ، فالدنيا وما فيها من ملذات ومغريات ومطامع تفسد على الإنسان صلابته وتخلب بصره ولا يستثنى في ذلك إلا الشاذ النادر، والشاذ لا يقاس عليه كما يقول المناطقة(الوردين، 1995، ص15).

والإنسان حين يسمع الواعظ يعظه بترك هذه الدنيا الخلابة يمسي حائرا، فضميره يأمره بإطاعة الواعظ من ناحية، ومن ناحية أخرى نفسه تجذبه نحو الدنيا جذبا لا خلاص منه، فهو إذا واقع بين حجري الرحى، لا يستطيع أن يترك الدنيا ولا يستطيع أن يترك الجنة التي وعد بها المتقون(الوردي، 1995، ص15).

يحاول بعض الباحثين النفسيين اليوم أن يحللوا الصراع النفسي على مختلف أنواعه، وأن يجدوا له العلاج، فقد تبين لهم بأن أكثر الناس مصابين بشيء منه ، قليلا أو كثيرا فقد وجدوا أنه قد يصيب في بعض الأفراد فيسبب لهم التواءات وانحرافات نفسية شتى(الوردي، 1995، ص17).

ويستشهد الوردي بدراسات فرويد في المجال النفسي حيث يقول أن فرويد يرجع سبب الكثير من حالات الحمق والهستيريا وارتباك الأعصاب إلى التصادم الذي يحدث في داخل النفس بين مبادئ الإنسان الخلقية وما يهفوا إلى فؤاده من شهوات جنسية عارمة(الوردي، 1995، ص 17).

وما يورث أيضا الصراع النفسي هو ما يشعر به الإنسان من حب للمال أو الجاه والشهوة وما يوضع في مواجهة ذلك من مبادئ مثالية تشدد في احتقاره وفي ذم الساعين إليه، وقد يمسي الصراع النفسي على أشده حين يكون العرف الاجتماعي مقدرا للمال والجاه، ولذلك يكون الإنسان حائرا، حيث تدفعه القيم الاجتماعية من جهة نحو جمع المال والحصول على الجاه، بينما يؤكد الواعظون من جهة أخرى على أن جمع المال رذيلة وحب الجاه ذنب فضيع(الوردي، 1995، ص ص 17- 18).

من خصائص الطبيعة البشرية – يقول الوردي- أنها شديدة التأثر بما يوحى إليها من العرف الاجتماعي من قيم واعتبارات، فالإنسان يود أن يظهر بين الناس بالمظهر الذي يروق في أعينهم فإذا احترم الناس صفة معينة، ترى الفرد يحاول شتى المحاولات للاتصاف بتلك الصفة والتباهي بها والتنافس عليها(الوردي، 1995، ص18)، وشر المجتمعات هو ذلك المجتمع الذي يحترم طريقة معينة في الحياة ، في الوقت الذي ينصح الواعظون فيه بإتباع طريق آخر معاكس لذلك، وفي هذا المجتمع ذي الوجهين ينمو الصراع النفسي لدى بعض الأفراد، وقد يلجأ كثير منهم إلى حياة الانعزال والرهبنة حيث أنهم -يؤكد الوردي- لا يستطيعون أن يوفقوا في أنفسهم بين الدافعين المتناقضين، أما الباقون من الذين لا يستطيعون الاعتزال يلجئون في سبيل التوفيق بين مبادئ الوعظ الديني وبين المجتمع إلى حيلة أخرى وهي ما نسميها بازدواجية الشخصية (الوردي، 1995، ص18)، وفي العنصر المقبل سنحاول التعرف على الكيفية التي يساهم بها الوعظ الديني المثالي في تكوين شخصية مزدوجة.

10- كيف يشكل الوعظ الديني ازدواجية في شخصية الفرد؟

يرى الوردي أن الوعظ الديني يشتد في المراكز الدينية أكثر من غيرها، ففي المجتمع الذي يكثر فيه الواعظون والفقهاء يكون الناس فيه أولى وجهين، فهم في أعماقهم يشبهون سائر الناس ولكنهم يمتازون بأنهم يتواعظون ويتصافعون بالويل والثبور أكثر من غيرهم(الوردي، 1995، ص 46).

ومن يدرس نظام التربية الذي يجرون عليه في هذا المجتمع يجد نزعة الازدواج ظاهرة فيه، فمعلم الأولاد أو شيخ الكتاب كما يسمونه أحيانا، لا ينفك ينصح تلاميذه ويعظهم ويحرضهم على إتباع كتاب الله وسنة رسوله وهو يود من تلاميذه أن ينكبوا على دروسهم ولا يتكلموا ويلعبوا ولو استطاع أن يقطع أنفاسهم لفعل – يقول الوردي-، إن المعلم هنا يكون في عمله هذا كالواعظ الذي ينصح الناس بخلاف طبيعتهم، هو بذلك يدفعهم إلى العصيان دفعا ، فالتلميذ يشعر بأن ساعة الدرس بمثابة السجن له، لذلك تجده لا يكاد يخرج من بين يدي معلمه حتى ينفجر راكضا معربدا خاطفا مؤذيا(الوردي، 1995، ص46)، وهو لا يكاد يلمح معلمه من بعيد حتى يتقمص زي التزمت والوقار ويتخذ له شخصية أخرى غير الشخصية التي كان عليها قبل ذلك، إنه مضطر أن يكون مزدوج الشخصية فهو لا يستطيع أن يكون متزمتا ووقورا خارج المدرسة وهو كذلك لا يستطيع أن يكون على طبيعته الصاخبة داخلها فهو متطرف في حركته آنا ومتطرف في سكونه آنا آخر.

والطفل قد يبتلى أول الأمر بصراع نفسي على منوال ما ابتلى به أسلافه في صدر الإسلام ؛ فهو يسمع المواعظ والنصائح المثالية في المدرسة فإذا خرج يلعب في الأزقة وجد نفسه منجرفا في تيار قوي من الاعتبارات الاجتماعية التي تشبه اعتبارات البداوة إلى حد بعيد.

إن الاعتبارات التي تسود في مجتمع الأطفال في الأزقة تمجد التظاهر بالقوة والفخار والتنافس، وتجد الأطفال هناك يتحاربون ويتشاتمون؛ فالطفل يعتاد على الاعتبارات البدوية في الأزقة ويعتاد على سماع المواعظ في المدرسة(الوردي، 1995، ص47).

لقد أصبح الوعظ مهنة تدر على أصحابها أموالا – يقول الوردي – وتمنحه مركزا اجتماعيا لا بأس به وأخذ يحترف مهنة الوعظ كل من فشل في الحصول على مهنة أخرى، حيث أنها مهنة سهلة لا تحتاج إلا لحفظ بعض الآيات والأحاديث ثم ارتداء الألبسة الفضفاضة التي تملأ النظر وتخلبه ، ويستحسن في الواعظ أن يكون ذا لحية كبيرة وعمامة قوراء(الوردي، 1995، ص 47)، ثم يأخذ بعد ذلك بإعلان الويل والثبور على الناس، فيبكي ويستبكي ويخرج الناس من عنده واثقون بأن الله قد رضي عنهم وبنى لهم القصور الباذخة في الجنة، ويأتي المترفون والأغنياء، والحكام فيغدقون على هذا الواعظ المؤمن ما يجعلهم مثله مترفا سعيدا(الوردي، 1995، ص47)، إنه يصلي بالأجرة ويصوم بالأجرة ويحج بالأجرة وهو يريد من الناس جميعا أن يصوموا ويصلوا ويحجوا مثله ناسيا أن الفقر والكفاح في سبيل الرزق قد أعمى الناس عن كل شيء سوى لقمة الزقوم(الوردي، 1995، ص46).

يذكر الوردي حادثة وقعت معه مع أحد العمال ذات يوم وكان الفصل صيفا شديدة الحرارة، فسأله لماذا لا تصوم أيها الزنديق ؟ فأجابني بحرقة: إن الصوم يا مولانا قد فرض على أصحاب السراديب وحدهم ، عند هذا شعرت بأني ظلمت الرجل(الوردي، 1995، ص ص47، 48).

يقول الوردي أنه رأى أحد الواعظين ذات مرة وهو يذم هارون الرشيد ذما مقذعا فالرشيد على قوله مترف مغتصب صرف أموال الأمة على ملذاته وشهواته، فقلت له ادع للرشيد يا أخي

فهو وأمثاله من المترفين الطغاة هم الذين أسسوا لكم هذه المهنة المربحة ولولاهم لكنتم اليوم بقالين أو حمالين فالواقع أن الوعاظ والطغاة من نوع واحد ؛ فالطغاة يظلمون الناس بأعمالهم والوعاظ يظلمون الناس بأقوالهم ؛ فلو أن الواعظون كرسوا خطبهم الرنانة على توالي العصور في مكافحة الطغاة وإظهار عيوبهم لصار البشر على غير ما هم عليه اليوم(الوردي، 1995، ص48).

إن التهديدات الإلهية وحدها لا تردع الظالم عن ظلمه فهو حين يظلم لا يدري أنه ظالم وهو يسوغ ظلمه ويبرره ويتأول فيه ويجعله عدلا، وقد برع لفقهاء بما يسمونه – الحيل الشرعية – فهم يستطيعون أن يجدوا مسوغا شرعيا لكل عمل مهما كان دنيئا، والسلطان الظالم لا يعمل عملا إلا بعد أن يجمع الفقهاء ويعرض عليهم الأمر وهم ينظرون إلى السلطان فإذا وجدوه مصمما على ذلك العمل أسرعوا إلى ما في جعبتهم من الآيات والأحاديث المتناقضة فينفضونها أمامه ليختار منها ما يلائمه والله غفور رحيم على كل الأحوال(الوردي، 1995، ص49).

حيث نجد أن الوعاظ والفقهاء لا يجدون مبررا أو عذرا للمساكين إذا أخطئوا ولا يريدون أن يستمعوا إلى حجتهم أو الظروف التي قادتهم إلى ذلك سواء الاجتماعية أو الاقتصادية والتي في غالبيتها الحكام السبب فيها، فهؤلاء الفقهاء لا يعاقبون الحكام الذين زرعوا بترفهم بذور الزندقة في الناس إنما عاقبوا معتنقيها، فقد يتزعزع إيمان أي إنسان حين يرى الحاكم أو أمير المؤمنين ينهب أموال الأمة ثم يبذرها على شهواته ولذاته ، والعجيب أن نرى الناهب معذورا والمنهوب معاقبا(الوردي، 1995، ص54).

ومن الظواهر النفسية التي تلفت النظر في أولي الشخصية المزدوجة أنهم يحبون من لا يحترمونه ويحترمون من لا يحبونه فنجد أن هناك فرقا كبيرا بين محبة الناس واحترامهم، حيث يستشهد الوردي بقول "ميكيافيلي" حيث يقول: من الصعب أن يكون الأمير مهيبا ومحبوبا في آن واحد، ولو خيرت بأن تكون مهيبا ومكروها أو تكون محتقرا محبوبا فالأسلم أن تختار المهابة ...فالناس لا يتورعون في أن يؤذوا المحبوب، ولكن لا يقدمون على إيذاء المهيب ...فالحب عاطفة لا تلبث أن تخمد إذا نالت مرامها، أما المهابة فيسندها خوف العقوبة وهذا أمر لا مفر منه(الوردي، 1995، ص ص 60-61)، وسبب ذلك نشأ من جراء الازدواج الذي تغلغل في تكوين شخصيتنا، فنحن في أعمالنا بدو نحتقر الضعيف ونحترم القوي، أما في أفكارنا أفلاطونيون ننشد المثل العليا، فإذا أحببنا شخص كانت قلوبنا معه وسيوفنا عليه(الوردي، 1995، ص61).

11- الوعظ الديني وإصلاح المجتمع

يعتقد الواعظون أنهم كلما غالوا بالوعظ كان ذلك أدعى إلى تحسين أخلاق الناس والسمو بها، فهم يضنون أن الواعظ بتحليقه هذا يستطيع أن يرفع أخلاق الناس معه، إنهم بهذا يشبهون الإنسان بالتاجر الذي يسوم بسلعته ثمنا غاليا لكي يهون على المشتري أن يدفع فيها ثمنا معتدلا، نسي هؤلاء أن الأخلاق البشرية ليست كالبضائع التي تباع وتشترى، فالطبيعة البشرية لها نواميسها التي لا يمكن تخطيها، والإنسان عندما يرى الهدف الخلقي بعيدا عنه بعدا شاسعا يتملكه اليأس ويأخذ عند ذلك بإهماله أو الاستهتار به(الوردي، 1995، ص55).

إن الجدير بالواعظ أن يضع الهدف الخلقي واطئا في متناول الكثير من الناس لكي يشجعهم بذلك على السعي نحوه والتنافس عليه(الوردي، 1995، ص55)، والإنسان يختلف عن الحيوان بكونه يحب السمعة والمكانة الاجتماعية وكثيرا ما يضحي الإنسان بالمال في سبيل لقب يحصل عليه أو شهرة ينالها، وكلما ازداد الإنسان شهرة بين الناس كلما ازداد سعيه لتدعيم تلك الشهرة والحفاظ عليها ؛ فالزعيم ليس ملاكا يختلف بطبيعته عن باقي البشر إذ يطلب الشهرة والمكانة كغيره من الناس فإذا رأى الشهرة لا تأتي إلا عن طريق التضحية والخدمة العامة فإنه لا يجد

مناصا إلا السير في هذا الطريق الوعر، فالزعامة ظاهرة اجتماعية تنبعث من المجتمع وتنمو به(الوردي، 1995، ص57).

إن الزعيم يخلق الأمة وهي تخلقه في الوقت ذاته فالأمة لا تستطيع أن تخلق شخصا تافها زعيما وكذلك لا يستطيع الشخص الموهوب أن يكون زعيما في أمة لا تقدره، إن المجتمع المزدوج ناقد من طراز غريب فلو عاش مع الأنبياء لوجد فيهم كثيرا من العيوب، فالوعظ يجعل الناس شديدين في نقد غيرهم، فالمقاييس الأخلاقية التي يسمعونها من أفواه الوعاظ عالية جدا وهم لا يستطيعون تطبيقها على أنفسهم فيلجؤون إلى تطبيقها على غيرهم وبذا يكون نقدهم شديدا، إنهم لا يبصرون عيوبهم فهم يستطيعون أن يأتوا بالحجج والأعذار لتبرير أعماقهم في ضوء ما سمعوه من المقاييس الوعظية، أما غيرهم فلا عذر له لذلك نراهم يكفرون بعضهم بعضا ويضطهد بعضهم بعضا، ويشتد ذلك في المجتمعات الدينية يكون الوعظ على أشده ويكون فيه الانتقاد والبحث عن عيوب الناس هائلا – يقول الوردي- (الوردي، 1995، ص59).

لقد صنع لنا الوعاظ أنماطا من السلوك فوق متناول البشر وتركونا نركض وراءها من غير جدوى كمن يركض وراء السراب(الوردي، 1995، ص60).

13- إشكالية الاقتداء بالسلف الصالح

يريد الواعظون أن يرجعوا بنا إلى صدر الإسلام – يقول الوردي – وهم يشيرون دائما إلى المسلمين الأولين قائلين: "انظروا إليهم ...لقد اتبعوا الحق فنجحوا، وليس لنا إلا أن نتبع طريقهم بحذافيره لكي ننال النجاح مثلهم"(الوردي، 1995، ص70).

يصف الوردي هذا المنطق بالسخيف ، فالمسلمون الأوائل نجحوا وفشلوا وليس لنا إلا أن ندرس عبرة النجاح والفشل في تاريخهم لكي نتعظ منها، فكل حركة اجتماعية عبر التاريخ لا تكاد تنجح حتى تفشل، هذه هي سنة الخلق في جميع الأزمان، وقد أشار إليها عمر بن الخطاب حيث شبه الإسلام بالبعير، فهو ينمو في أول الأمر ثم يناله الهرم والفند أخيرا، حيث يقول عمر بن الخطاب: "ألا إني قد سننت الإسلام سن البعير، يبدأ فيكون جذا ثم ثنيا ثم رباعيا ثم سديسا ثم بازلا، ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان ألا فإن الإسلام قد بزل"(الوردي، 1995، ص70).

فالمسلون الأوائل كانوا يكافحون الظلم والترف والتعالي أيام النبي محمد (ص) فلما علوا هم في الأرض وجاءهم المال والترف أصبحوا هم بحاجة إلى من يكافحهم ، يقول أبو يوسف في كتابه الخراج: "عندما جاؤوا بغنائم فارس إلى عمر كشف عنها فرأى فيها ما لم تر عيناه مثله من الجوهر واللؤلؤ والذهب والفضة ، فبكى، فقال له عبد الرحمان بن عوف: وهذا من مواقف الشكر فما يبكيك ؟ فقال عمر: أجل ولكن الله لم يعط قوما هذا إلا ألقى بينهم العداوة والبغضاء"(الوردي، 1995، ص 71)، لقد أدرك عمر بثاقب بصره أن الإسلام مقبل على النزول بعد صعوده، وأنه سيصبح دولة كسائر الدول، تجبي لها الأموال وتحشد في سبيلها الجنود وتضرب من أجلها السياط على ظهور المستعبدين من الناس، حيث يقول علي بن أبي طالب: "من ملك استأثر"(الوردي، 1995، ص 71).

إن الواعظون - يقول الوردي – ينظرون في الأمور بمنظور المنطق القديم، منطق الثبات والتصنيف الثنائي، فالحسن حسن على الدوام، والقبيح يبقى قبيحا إلى يوم القيامة، والمنطق الاجتماعي الحديث يستخف هذا الرأي ويعتبره منطق السلاطين والمعتوهين، فالحسن في نظر المنطق الحديث لا يبقى حسا إلى الأبد، إنه في حركة وتغير مستمر، فما كان حسنا بالأمس قد يصبح اليوم قبيحا، فالمنطق الحديث يدعى منطق التناقش، فكل شيء يحمل نقيضه في صميم

تكوينه ، وهو لا يكاد ينمو حتى ينمو نقيضه معه وبذا يصير الشر خيرا بمجرد نموه وتحركه(الوردي، 1995، ص72).

يريد منا الواعظون أن ندرس منشأ الإسلام ونبارك حركته الأولى باعتبار أنها الحركة الخالدة التي لا تحتاج إلى تبديل أو تطوير، وهذا رأي لا يرضاه مؤسس الإسلام نفسه، فمحمد جاء للناس بخطوة اجتماعية كبرى وهو يعلم أن التاريخ يسير بخطوات متتابعة فلا بد إذن أن تعقب خطوته خطوات أخرى على توالي الأجيال من غير توقف(الوردي، 1995، ص 72).

كان النبي محمد (ص) يصرح بأن الإسلام سيرجع غريبا كما بدأ أول مرة وكان يقول لأصحابه أنهم يتبعون سنن من كان قبلهم من الأمم حذو النعل للنعل وأنهم سينقلبون بعده، وهو في أواخر أيامه كان يتوقع ظهور الفتن كما توقعها من بعده خليفته عمر بن الخطاب(الوردي، 1995، ص 72).

- خاتمة

تناولنا في هذه الدراسة تحليل سوسيولوجي لظاهرة الوعظ الديني وتأثيرها على شخصية الفرد من وجهة نظر عالم الاجتماع العراقي علي الوردي ، حيث حاول تقديم تفسير لهذه الظاهرة بعيدا عن التفسيرات التقليدية التي ترى في الوعظ الديني أسلوبا جيدا لإصلاح وتهذيب النفس.

فالوردي يرى أن الوعظ المثالي البعيد عن الواقع يساهم في خلق صراع نفسي لدى الأفراد يمهد لحدوث ازدواجية في الشخصية، فعدم مراعاة ظروف الناس الاقتصادية والاجتماعية بالإضافة لطبيعتهم البشرية وإغراقهم بمجموعة من القيم المثالية الأفلاطونية يخلق لدى الأفراد حالة من الصدام النفسي بين المثل العليا التي يحرص الوعاظ على زرعها في نفوس الناس وبين رغباتهم واحتياجاتهم، فالدوافع المتناقضة الموجودة لدى الناس تساهم في تعميق الصراع النفسي الأمر الذي يجعلهم مزدوجي الشخصية كوسيلة دفاعية للتخفيف من ألم الصراع النفسي، فالناس مثاليون جدا في أقوالهم بينما في الواقع هم عكس ذلك وهذا ما تم فرضه عليهم من واقعهم الاجتماعي وطبيعتهم البشرية.

فالوعاظ الدينيون الذين يعتقدون أن الوعظ الديني يساهم في تطور المجتمع وإصلاحه عليهم مراعاة مختلف الجوانب المحيطة بالفرد وتحسينها فإذا أردنا أن يكون البشر غير فاسدين علينا أن نوفر لهم شروط صلاحهم ثم نعظهم بعد ذلك وليس العكس فعدم مراعاة ذلك يخلق أزمات نفسية ومزيدا من الفساد بأشكال مختلفة.

بعد عرض النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذه الدراسة نقترح ما يلي:

-إجراء المزيد من الدراسات حول تأثير الوعظ الديني على شخصية الفرد والدور الذي يلعبه في إحداث صراع نفسي وازدواجية في الشخصية؛

-البحث عن كيفية تحسين ظروف الناس الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لتحسين من أخلاقهم وعدم الاعتماد على الوعظ الديني وحده؛

-يجب الابتعاد عن المثالية في الوعظ لتجنب نتائج عكسية على نفسية الفرد وسلوكه واحترام طبيعة الإنسان وظروفه.

- قائمة المراجع

- علي، الوردي. (2013). *دراسة في سوسيولوجيا الإسلام*، الوراق للنشر والتوزيع ، ط1، بغداد، العراق: الفرات للنشر والتوزيع.
- مدونة فكر بلا قيود (2016/02/19). *من هو المفكر العراقي علي الوردي*، https://fakkerfree.wordpress.com، سا: 12:00.
- علي، الوردي. (1969). *لمحات اجتماعية عن تاريخ العراق الحديث*، الجزء الأول، الأحداث التاريخية في بداية العهد العثماني حتى منتصف القرن التاسع عشر، بغداد، العراق: دار الوراق للنشر.
- إبراهيم، الحيدري. (2006). *علي الوردي: شخصيته، منهجه، وأفكاره الاجتماعية*، ط1، بغداد، العراق: منشورات الجمل.

أمين، طاهر. (2021/10/19). *وعاظ الرأسمالية، الخطاب الديني في عصر اقتصاد السوق*، نشر بتاريخ : 2018/12/3 ، www.aljazeera.net/blogs ، سا: 10:00

- إبراهيم ، الحيدري.(2021/11/26). *علي الوردي والطبيعة البشرية*، نشر بتاريخ: 30 /2017/11، www.ahewar.org، سا: 15:00.
- حميد، المطبعي. (2010).علي *الوردي يدافع عن نفسه*، بط، بغداد، العراق: دار الكتب العراقية.
- يمنى، عوض.(2021/11/26). *قراءة في كتاب مهزلة العقل البشري*، نشر بتاريخ: 2020/4/5، www.rawafidpost.com، سا: 13:00.
- علي، الوردي. (1995). *وعاظ السلاطين*، ط2، لندن، بريطانيا: دار كوفان للنشر والتوزيع.